الفصل الاول

الوصيتان العظيمتان

(فصل موجز في المباديء الاخلاقية المعلنة في تعاليم المسيح نفسه ، والمدونة في الانجيل الكريم ، وهي المباديء الاساسية الجوهرية التي أضفتها المسيحية على الاخلاق ، اي التقاليد والمعتقدات العامة الدائرة حول السلوك البشري في العالم المتحضر الحديث)

نشأة الاخلاق المسيحية :

جاء في بشارة مرقس ان احد احبار اليهود ، المغرقين في تأويل الشريعة المقدسة والأجتهاد فيها ، سأل يسوع يوماً عن الوصية الأولى والعظمى ـــ فأجابه : « اسمع يا اسرائيل . الرب الهك رب واحد . تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك .ليس وصية اخرى اعظم من هاتين» . وتقول القصة ان الحبر اليهودي أمَّن على هذه الأقوال فحسبه يسوع : « ليس بعيداً عن ملكوت الله »

وجاء هذا التصريح عينه في بشارة لوقا على لسان عالم من

علماء الشرع ، أقبل يوماً وسأل يسوع ما عساه ان يفعل ليرث الحياة الأبدية . ولما سأله المسيح : أيجد في الشريعة التي يتولى تفسيرها شيئاً ما ينير له السبيل فيما يطلب ، أجاب جواباً يكاد يكون متفقاً مع العبارة التي اجراها مرقس على لسان المسيح . وقد أمَّن يسوع نفسه على هذا الجواب

واذ يسأل بعد عن معنى « القريب » يروي لسامعيه مثل السامري المأثور ، [1] وبطله رجل يثخنه اللصوص بالجراح

---

(١) «فأجاب يسوع وقال. انسان كان نازلاً من اورشليم الى أريحا. فوقع بين لصوص فعرَّوه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت . فعرض ان كان كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله . وكذلك لاوي أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله. ولكن سامرياً مسافراً جاء اليه ولما رآه تحنن فتقدم وضمد جراحاته وصب عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابته وأتى به الى فندق وأعتنى به. وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له اعتن به ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك. فأي هؤلاء الثلاثة ترى الذي صار قريباً للذي وقع بين اللصوص . فقال الذي صنع معه الرحمة . فقال له يسوع اذهب انت ايضاً وأصنع هكذا» (لوقا ١٠: ٣٠ ــ ٣٧)

و يسقط على قارعة الطريق مضرجاً بدمائه ، ولـكنه يلقى الأسعاف والرحمة، لا من رجال الدين في شعبه و بني امه الذين يجوزون مقابله ولا يمدون له يداً رحيمة ، بل من رجل محتقر من جنس غريب ، يرثي لبلواه ويغدق عليه من عطفه ، ويكون به براً رحيماً

وهذا التصريح الذي جرى على لسان يسوع مرة ، وأمَّن عليه اخرى ، مقتبس عن العهد القديم ، لا من شذرة واحدة ، بل من شذرتين في سفرين مختلفين واقترنا هنا في عبارة واحدة[1]

وانه لمن الشيق حقاً ان نلحظ في العبارة الثانية الآمرة بمحبة القريب كالنفس، ان الـكلمة «قريب»، مرادفة لـكلمة « ابن الشعب » كما يؤخذ من سياق النصوص الأصلية في العهد القديم ، في الآيات السابقة لها . ولا ريبة في ان لوقا ، في سرده مثل السامري الصالح الذي جرى على لسان السيد المسيح، ما كان ليرمي الى قصر الـكلمة على هذا المعنى الضيق المحدود، ولـكنه قصد الى تعميمها لتشمل كل مخلوق بشري ، ولو كان من جنس غريب محتقر ، شأن السامري في نظر المحافظين من اليهود

---

(١) تثنية ٦:٤ و ٥ ولاويين ١٩:١٨

وهـذه الخلاصة للشريعة الأدبية ، التي اذاعها مؤسس المسيحية ، والتي فهمت من مقطعها الثاني بالمعنى الجامع الشامل الذي انطوى عليه مثل السامري الصالح ، هي في نظرنا بداية الأخلاق المسيحية وبراعة استهلالها . وواضح هنا انها تضع امامنا وجهة نظر تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي تعتبر الأخلاق أشبه بمجموعة من النواهي « والمحرمات taboo » على نحو ما يذهب اليه بعض الكتّاب المحدثين . ويقصدون بها القواعد التي تنهي عن اعمال خاصة لأنها ضارة مؤذية ، لا بسبب ما فيها من ميول ونزعات تنتج عواقب مستنكرة ونتائج ممجوجة ، بل لأنها تقترن بشعور مرذول في نظر التقاليد والعادات التي ألفتها الجماعة ، شعور الفزع والرعدة المضاد لشعور الأحترام والرهبة الجاثم في قلب الأحساس الديني

وكل قواعد الأخلاق التي تنهي عن اعمال معينة ينبغي ان تستمد وجودها — في نظر الذين يتبعون تعاليم قصة الأنجيل التي وصفتها كأساس للاخلاق المسيحية ـ من القوة على كبت الرغائب والميول التي لا تتفق مع الموقف الذي يرضاه المسيح لأتباعه وتلاميذه نحو الله ونحو الأنسان .

قواعد الأخلاق ومظاهرها وسلطانها :

وانه لفي الامكان ، بلا شك ، أن نصطنع من هاتين الوصيتين ، عن محبة الله ومحبة القريب ، مجموعة دقيقة مفصلة من قواعد الأخلاق ، وذلك بان نتمثلها كأنها من أحكام الاله الذي اليه يتجه كل ولائنا وكل تعبّدنا بحكم ما تمليه علينا أولى الوصيتين القائلة « تحب الرب إلهك . . . . » . ولنا في تاريخ الآداب المسيحية من الشواهد والأمثال ما ينهض دليلاً على صدق هذا القول . وبهذه الوسيلة يصبح الحرص على هذه القواعد ومراعاتها في المقام الأول عندنا نحن الذين نقدم لذلك الاله الحب الذي يتطلبه . ثم يكون أفضل تعبير لذلك الحب ان نكمّل تماماً كل ما يريدنا أن نفعله . واذ نبلغ هذا الطور لا تكون التزاماتنا أو تكاليفنا معلقة على تلك القواعد ذاتها ، بل لانها صادرة عن الله الذي نطيعه ، لا خشية من نتائج العصيان بل حباً لصاحب الأمر والنهي . فالحب ، لا الخوف هو الباعث الذي يسوقنا للخضوع للقواعد التي تتمثل لنا فيها ارادة الله . ويؤخذ من الفكرة كلها التي تجعل الله كائناً جديراً بالحب والعبادة ، ان هذه القواعد الأخلاقية لا تستند الى مجرد

هوى تحكمي متقلب ، بل الى ارادة صالحة يرضاها الله للذين تُفرض عليهم هذه القواعد

و بين أساطين المسيحية الذين عاشوا في القرن الخامس الميلادي القديس اوغسطينوس الشهير. ويؤثر عن هذا القديس قوله : ان الفارق بين الشريعة والانجيل، هو الفارق بين الخوف والمحبة . وقد كان هذا بلا شك التعليم السائد في الكنيسة المسيحية ، على الرغم من أن بعض الكتّاب المسيحيين قد أساءوا الى اليهودي المتدين والاسرائيلي التقيّ حيث قالوا ان علاقته بالله هي الخوف وليس المحبة ، وعلى الرغم من أن شعور الخوف الذليل قد استولى احياناً على مَنْ يدعون أنفسهم مسيحيين

كيف نحب الله ؟

ولكن هناك مشاكل عدّة تبرز لنا حينما نشرع في تفهّم المبدأ القائل ان شريعة الله متضمنة في الوصيتين: محبة الله ، ومحبة القريب

فبأي معنى نقدر أن نحب الله ؟ وهل «محبتنا لله و «محبتنا للقريب» ذات معنى واحد ؟ وهل يمكن للمحبة أن تُؤمر؟ وما علاقة محبة الله في الوصية الأولى بمحبة القريب في الوصية

الثانية ؟ ومن هو قريبي ؟ (على حدّ قول استاذ الشريعة في بشارة لوقا) [1] ؟ وما محبة النفس المقصودة من القول : تحب قريبك كنفسك ؟ والى أي حد تكون مقياساً لمحبة الآخرين (كما يتضح من الوصية الثانية) ؟ في طوقي أن ألقي نوراً على كل سؤال ، على أن يكون للقراء اذا شاءوا ، متابعة البحث والاستقصاء بانفسهم :

يقول كاتب رسالة يوحنا الأولى « من لا يحب أخاه الذي أبصره ، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره ؟ » [2] ويخيل الينا أن كل « محبة » تجيش في أفئدتنا نحو كائن روحي غير منظور يمكن تعليلها وتوضيحها بصورة تلك العواطف المنبعثة في الأصل نحو زملائنا في الانسانية — نحو الوالدين والاخوة والأخوات والأعزاء والأصدقاء . وقد يبدو لنا من أوهام الخيال أن ننتظر أن تكون تلك العواطف التي نحب بها الله اقوى واشد من العواطف التي نريقها في محبة زملائنا في الانسانية . ولو أن الأمر يبدو لنا هكذا ، فان الوصية الأولى لا تأمرنا باقل منه، أن نحب الله من كل نفوسنا ومن كل عقولنا ومن كل قوتنا . ولدينا تعليم مسيحي ، يستند الى سند قوي من

---

(١) لوقا ١٠ : ٢٩ (١) ١ يوحنا ٤ : ٢٠

آيات عدة في العهد الجديد ، يؤيد لنا أن محبتنا للقريب ينبغي أن تستمد أصولها من محبتنا لله ، وأن محبة الله لا تستمد أصولها من محبة القريب . ومعنى هذا أن محبتنا لله ليست مجرد صورة أو انعكاس لمحبة نضفيها على القريب . فأي النتائج نستخلص من هذه الاعتبارات في تحديد طبيعة المحبة التي نحب بها الله ؟ انه نزام على الأخلاق المسيحية أن تضع محبة الله في المقام الأول من الأهمية ، ولا يرضينا أن نقنع بما وصلنا اليه في تفهم هذه الفكرة

مقام محبة الله في الحياة المسيحية

يؤمن المسيحيون في تنزّه الله جلّ جلاله، ولكن الله المتنزّه الحي القيوم قد أعلن ذاته ، لا في كلمته التي ألقاها الى الأنبياء فقط ، بل أيضاً في حلوله في كلمته الازلية ، يسوع المسيح .وقد هيأ لهم هذا الاعتقاد أن يروا في صفات يسوع ، مدى أجيال التاريخ ، مظهراً لله ، فعرفوا ان الانسان مستطيع أن يجد في الله القديم من الحدث تلك الصفات الازلية (مثل المحبة والحق الخ) التي نعزوها الى الشخصية حينما نتمثلها في الحياة الانسانية

ومع هذا فانه ينبغي ونحن في صدد التحدث عن فضل

المسيحية على الأخلاق ، الاّ نتغاضى عن تلك الحقيقة الراهنة ألا وهي أن الذين لخص لهم المسيح الشريعة الالهية لم يفكروا في يسوع « كصورة » طبق الأصل لله الذين أُمروا أن يحبوه من كل قلوبهم ومن كل نفوسهم ومن كل قوتهم . ثم ان لقب « الآب » الذي آثره يسوع على كل لقب سواه في التحدث عن الله لم يكن له بين الألقاب اليهودية في عصر يسوع من الرفعة والسموّ ما له في نظر الذين ورثوا التقاليد المسيحية

وأغلب الظن أن «محبة الله» التي اقتبسها يسوع عن العهد القديم وحسبها أفضل مطالب الله في أسفار شعبه ، كانت في نظر الكاتب القديم نوعاً أقرب الى المحبة التي يبذلها المرء لوطنه أو أمته منها الى محبة شخص مفرد معين . فقد كان «يهوه» في نظر اليهود المتدينين المركز الروحي لحياة الأمة ، تمثلت ارادته في مؤسساتها وهيئاتها ، وتكشفت مقاصده في مبادئها ومثلها العليا. والحب الذي يحبه الانسان لوطنه أو شعبه ، قد يكون حباً عاطفياً كما تشهد بذلك الأشعار والأناشيد الوطنية في كل بلد

لذلك أعتقده لزاماً علينا أن نفكر مبدئياً فيما تفرضه علينا الوصية الأولى كمحبة أقرب شبه الى الولاء العاطفي الصادق يبذله الانسان للوطن أو لقضية معينة منها الى محبة يكون موضوعها

فرداً محبوباً . ومع ذلك فانه ينبغي ، في تقدير فضل المسيحية على الأخلاق في العالم ، أن نقيم وزناً لاعتبار جدّ خطير :

فانه مع اتساع الأفق الأدبي الذي كان أثراً من آثار المسيحية، ومع التسليم بأن شريعة الله لا تُخرج من نطاقها مجد الوطن — نقول مع تبديل وجهات النظر على هذا النحو فان الولاء المقدم لله الذي تجسمت فيه المثُل العليا للقوم الذين عبدوه، كان عرضة لأن تخبو حرارته و يضعف حماسه عما كان عليه الحال في شعب اسرائيل القديم الذين لم يميزوا كثيراً بين المشاعر الدينية والمشاعر السياسية — أجل ، كان يمكن أن تخبو هذه الحرارة ، لولا أن سرت اليها صفة خاصة جديدة نبتت بين المسيحيين قوامها أن القضية العادلة الحقة ، التي لم تكن قضية شعب واحد بل قضية العالم بأسره ، قد تجسمت تماماً في شخصية جذابة محبوبة جديرة بالعبادة ، صار الله فيها جسداً وحل كانسان بين البشر (١)

فمحبة الله في الوصية الأولى هي اذاً أشبه شيء بالمحبة التي يبذلها المرء لوطنه أو لقضيته ، ولكنها تلبس في المسيحية شعاراً يزيدها « حرارة وولاء » (على حدّ قول الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس) وذلك لأن العلاقة بين الله والانسان قد تطور

---

(١) يوحنا ١:١ و١٤

معناها فاصبحت «شخصية» ، بعد اذ شبّهت بالعلاقة بين يسوع وأبيه السماوي ، ومثُلت ببنوة المسيح وهو « صورة جوهر »[1] الآب ، الذي قد يصير تلاميذه وأتباعه أولاداً له بالتبني

كيف نحب القريب ؟

ومن الناحية الأخرى فان محبة القريب في الوصية الثانية — التي قيل انها «مثل» الأولى ، ليست فقط المحبة التي نحسُّ بها نحو الصديق أو الأخ ، التي لا يمكن أن تمتد نحو الذين لا نعرفهم أو الذين لا تتلاءم أمزجتنا مع أمزجتهم . فانه من السخف والبلادة أن نخضع هذا النوع من المحبة للأمر والايصاء . ولسنا ننكر أنه قام بين الكتّاب المسيحيين — أمثال بسكال — مَن حطّوا من قدر الصداقة الفردية وحسبوها مجرد احساس طبيعي لا يمت بصلة الى مرتبة المحبة العليا التي تكون الرابطة فيها علاقة مشتركة مع المسيح ومع الله اكثر منها انتماء الى أسرة وجماعة ، أو جاذبية شخصية متبادلة ، أو توافقاً في الأمزجة والطباع . واعتقادنا أن أولئك الكتّاب لا ينصفون الصداقة التي تقوم على عوامل كهذه . ومع ذلك فانه من الحق

---

(١) عبرانيين ١:٨

أن نقول إن محبة القريب التي تفرضها الشريعة المسيحية يجب أن تعتبر كأنها بمعزلٍ عن تلك المشاعر والأحاسيس الطبيعية ، وأن تمتد الى المدى الذي تذهب اليه الشريعة . أما هذا المدى فقد شرحه لنا مثل السامري الصالح الذي أشرت اليه من قبل ، وشرحه لنا بولس الرسول في تعليقه حين قال في رسالته الى رومية: « لا تكونوا مديونين لأحد بشيء الاَّ بأن يحب بعضكم بعضاً لأن من أحب غيره فقد اكمل الناموس . لأن لا تزن لا تقتل لا تسرق لا تشهد بالزور لا تشته وان كان وصية أخرى هي مجموعة في هذه الكلمة أن تحب قريبك كنفسك. المحبة لا تصنع شراً للقريب فالمحبة هي تكميل الناموس » (١)

ويبدو لنا جلياً من مثل السيد المسيح ، ومن تعليق بولس الرسول ، أن المحبة التي تأمر بها الوصية الثانية ليست محدودة بأحاسيس العطف الشخصي وبواعث الشعور الطبيعي . والمحبة التي تطالبنا بها الوصية ليست المحبة «الباثولوجية» — على حدّ قول الفيلسوف الألماني « كانت » وهو يعني بذلك المحبة العاطفية — فانه من العبث أن تأمر الناس بهذا النوع من المحبة . أما المحبة التي تفرضها الوصية فهي المحبة العملية التي

---

(١) رومية ١٣: ٨ — ١٠

قوامها أن نفعل للآخرين ما نريد نحن أن يفعل الآخرون بنا [1]

محبة اعدائنا :

لهذا أمرنا يسوع أن نحب أعداءنا ، فان العدو والصديق على حد سواء يدخلان تحت كلمة « القريب » . وبلا شك لا تنطوي محبة الأعداء على معنى اظهار الشعور الودي العاطفي نحوهم، بل تنطوي بالأحرى على الرغبة في معاملتهم كأنهم ليسوا أعداء لنا ، وعلى مسلكنا حيالهم كمسلكنا حيال أصدقائنا ، وفي معاملتهم كما نريد ان يعاملنا الآخرون . وادخال الاعداء في معنى «القريب» من الظواهر البارزة في تعاليم يسوع الادبية. وقد كان محقاً ذلك العالم الالماني « رودلف اويكان » وهو من قادة الالمان الروحيين في الجيل الماضي ، ان يرى في هذا المبدأ الذي رفع المسيح لواءه في الموعظة على الجبل ، دليلاً حاسماً على ادخال نظام جديد في الحياة أرقى من كل نظام عهدته الانسانية

المحبة الجامعة الشاملة

وفي مثال محبة الاعداء، نستطيع ان ندرس بعناية وتدقيق

---

(١) متى ٧: ١٢ ولوقا ٦: ٣١

طبيعة محبتنا للقريب التي تفرضها علينا الشريعة المسيحية .ومما لا شك فيه ان هذه المحبة ، كما قلنا ، ليست محبة عاطفية ، ولا محبة باثولوجية على حد قول الفيلسوف « كانت». أفيكون إذن إطلاق كلمة « المحبة » على هذا الشعور غموضاً وابهاماً ؟ أظن لا محل لقول مثل هذا.ونحن اذا وقفنا موقف عدم الاكتراث، الموقف الذي تدعو اليه الفلسفة الرواقية [1] حيال هجمات

---

(١) تأسست مدرسة الفلسفة الرواقية في أثينا حوالي ختام القرن الرابع ق . م . وكانت بغية الفكر الأغريقي القديم ان يبلغ الى الحق المطلق الكلى عن الكون . أما الفلسفة الرواقية فكانت فلسفة عملية نهضت لتكشف قاعدة عملية عن الحياة . وكانت تلك القاعدة هي أن يحيا الانسان وفق الطبيعة. وكانت الطبيعة في الأخلاق الرواقية هي العقل ، ضد الشعور أو العاطفة . لذلك نظرت الفلسفة الرواقية الى الحياة المتفقة مع الطبيعة — أو العقل — كمثل أعلى للخير ، هو الخير الذي تبلغه النفس حينما تُعتق كلية من الشهوة والعاطفة

وقد أبرزت الرواقية خصائص معينة يجب توافرها في الحكيم العاقل — هي الثقة والهدوء ورباطة الجأش أمام الحزن

الآخرين علينا ، زاعمين أننا أرفع منهم شأناً ، وانهم أعجز من أن ينالوا من كرامتنا بهذه الهجمات ، نقول ان موقفاً كهذا أبعد من ان نعتبره محبة الاعداء مما أشارت اليه الموعظة على الجبل ، حتى ولو اقترن عدم اكتراثنا بشيء من الاشفاق على أعدائنا حاسبين اياهم في نظرنا ضحايا الجهل والحماقة

وبينما لا يمكن أن نؤمر في شعورنا ، فانه في وسعنا ان نسلّم ان مشاعر خاصة تلائم روابط وعلاقات خاصة. فاننا نحسب مثلاً كراهة الام لولدها أو تنكّر الاخ لاخيه ، من المشاعر غير الطبيعية . ولا ندحة لنا عن التسليم بهذا الحق النفسي ألا وهو أن للاعمال أثرها في استمالة المشاعر والاحساسات المقترنة بها. ومن ثمّ حين نعامل أعداءنا كأنهم أصدقاء لنا — متخذين أساس مسلكنا هذا، لا الاغترار بكرامتنا والشعور بترفعنا عنهم، بل البواعث التي تدعو اليها المسيحية من أخاء مشترك في المسيح وبنوة مشتركة لله ، أقول عند ما نفعل هذا نستطيع أن نكبت المشاعر والعواطف التي لا تنسجم مع هذه العلاقات ، ونترقب

والفرح ، وصفاء الروح مما يلابس الحكمة

وفي الفكر الرواقي المتأخر حلّ السلام وصفاء العقل محل النشاط والعمل ، كخصلتين لتوافر الخير الكلي للانسان

بهوض عواطف أخرى تلائمها وتتسق معها ، ثم نرحب بها دلالة على أننا قد فعلنا ما طُلب منا ، وتصرَّفنا كما يليق بنا حيال أشخاص من اللائق أن نبدي لهم هذا الشعور . ولذا يكون جميع الناس الذين نعاملهم — ولو كانوا أعداءنا الخصوصيين أو العموميين — « أقرباء » لنا بالمعنى الذي وضعه يسوع في الوصية الثانية ، ولو لم يكن طبعاً بالمعنى الذي قصده كاتب العهد القديم الذي استعار منه ألفاظه

أساس الرابطة المشتركة في البشرية

ولسنا نقول بهذا ان المسيحية هي النبع الوحيد لهذه المحبة الجامعة الشاملة ، حتى في بلاد الغرب . فانه حين شرعت الكنيسة المسيحية في تبويب المباديء المتضمنة في تعاليم العهد الجديد المتفرقة ، أمدَّتها الفلسفة الرواقية بالفرش والاطار اللازمين للصورة التي رسمت فيها مباديء أخلاقها ، كما أمدَّتها الفلسفة الافلاطونية بالفرش والاطار اللازمين لفلسفتها العقلية الميتافيزيقية . وكانت الفلسفة الرواقية قد احلَّت في عقول أنصارها فكرة الوطن الجامع الشامل لكل الخلائق البشرية العاقلة محل فكرة الوطنية المحلية التي لم تكن لتتعدى المدينة الاغريقية القديمة المستقلة .

ومما قالة الامبراطور الرواقي مرقس أوريليوس [1] في «خطراته»: «يقول الشاعر: مدينة سيكروب التي أعتز بها — أفلا نقول نحن: مدينة زيوس التي نعتز بها؟» ومدينة سيكروب يكنى بها هنا عن أثينا، أما مدينة زيوس فيكنى بها عن العالم [2] ولكن لامناص من التسليم هنا ان الفكرة المسيحية القائلة ان الخلائق البشرية مرتبطة برباط الفداء المشترك من الخطية والشقاء، الفداء الذي تمّ بعمل مجيد جليل من الصلاح المتواضع والخير

---

(١) كان مرقس أوريليوس امبراطوراً لرومية. وعاش من سنة ١٢٠ ـ ١٨٠ ب. م

(٢) يذهب الرواقيون الى أن العالم الطبيعي المادي قد نشأ عن الاله زيوس. وتطور في الواقع عن مادته الخالدة واختمرت فيه قوة روحه الالهية وخضع لنواميسه وشرائعه. (وكان زيوس أشهر آلهة الاغريق، يقابله المشترى عند الرومان). هذه هي فكرة الرواقيين اللاهوتية عن الكون. «فالعقل» عند الرواقيين هو عقل زيوس وسائر الآلهة وجميع العقلاء الذين ليسوا أدنى منه

ومن هذه النظرية عن الكون استنتجوا ان كل الخلائق العاقلة تكوّن، في وحدة العقل المشترك في الجميع، هيئة واحدة وجماعة واحدة هي «مدينة زيوس» تسوسها شريعة مشتركة.

العطوف ، نقول ان هـذه الفكرة لأرقى وأفضل في استثارة العاطفة والاغراء على العمل في نطاق أوسع ، من الفكرة الرواقية التي قامت على الاشتراك في عقل مشترك. وهذا لا يمنعنا من التسليم بالحقيقة الراهنة ألا وهي ان بالأشتراك في هذا العقل المشترك يشعر الناس بحاجتهم ، بل بمقدرتهم ، على قبول الفداء الذي تنادي به المسيحية

وفي هذه العبارة الأخيرة قد ألمحت الى مظهر من مظاهر التعليم الأخلاقي المسيحي يتبين منه ماهية ذلك المزاج الأدبي الذي أحدثه هذا التعليم وان لم يكن مدمجاً في خلاصة الشريعة الألهية التي أذاعها يسوع ، وأعني بذلك الشعور بالخطية ، الذي يقترن بموعد غفران الخطايا . فهذا الشعور يريق لوناً فاقعاً على وجهة النظر المسيحية الى الحياة ـ ولقد اتخذت المسيحية في سيرها المضطرد في أجيال التاريخ ، وفي كثير من البلدان ، أوضاعاً كثيرة ، وأبرزت مظاهر شتى لرسالتها الأصلية ، وهذبت بطرق مختلفة تضاعيف تلك الرسالة . وحسبي أن أقول بحق انها في كل مكان، وفي كل وضع من أوضاعها، قد جعلت مغفرة الخطايا الحاجة العظمى والقصوى التي يفتقر اليها الأنسان ، وأقامت من نفسها مورداً يشبع هذه الحاجة اللجوجة

وقد ذهب المفكرون المسيحيون مذاهب شتى في تعليل الشر الأدبي في عالم خلق « حسناً » [1] بيد إله صالح على حدّ قول الكتاب المقدس، وكما يسلم به جمهرة المسيحيين. كذلك نحا اللاهوتيون المسيحيون مناحي كثيرة حول الطريقة التي ينال بها الخاطيء غفران الخطايا كما وعد الانجيل. ولكن في وسط هذه المذاهب المختلفة والنواحي المتفرعة، اتفقت كلمة أفرع الكنيسة المسيحية في تعليق أهمية على احتياج كل انسان لهذا الغفران، وجعله المهمة الأولى المفروض على الكنيسة ان تؤديها للخطاة بالنيابة عن الله

وهل لمحبة النفس مكان في الاخلاق المسيحية؟

عند الالماع الى خلاصة الشريعة المسيحية المتضمنة المبدأ الأساسي في الأخلاق المسيحية، قلت ان المسيحية لا تنكر مشروعية محبة النفس؛ بل على نقيض ذلك جعلت هذه المحبة في الوصية الثانية مقياساً لمحبة القريب، اذ تقول «تحب قريبك كنفسك». فليس من الصواب تماماً ان نصف محبة القريب في التعليم المسيحي «بالغيرية Altruism» فقد كان أول من أدخل

---

(١) تكوين ١:٢١

هذه اللفظة الى لغة الفلسفة «أوغست كونت» المفكر الفرنسي ، ونقلها عنه الى انكلترا «هربرت سبنسر» . وتحمل في ثناياها كما يؤخذ من اشتقاقها ومن تضادها « للأثرة egoism » معنىً نستشف منه تعارضاً بين محبة الآخرين ومحبة الذات،وهو ما لم يذهب اليه التعليم المسيحي . فالواقع أن هذا التعليم لا يؤيد أن محبة الآخرين تتعارض مع محبة النفس أو تتسامى عليها . والمسيحية لا تحتقر محبة النفس ، بل تضع محبة القريب في مستواها . والشريعة المسيحية لا تفرض علينا محبة النفس فلا ضرورة لهذا ، ولكنها تفترض اننا نحب أنفسنا . وواضح هنا ان محبة النفس المقصودة ليست المحبة « الباثولوجية » على حدّ قول الفيلسوف « كانت» أي ليست المحبة العاطفية . لأن هذه المحبة تتفاوت بتفاوت الأفراد ، ولا يمكن أن تتوافر في الكل على نمط واحد بحيث يصح أن تؤخذ مقياساً . أما المقصود بمحبة النفس هنا فهو السعي العملي لما يعهده أو يظنه الفرد في صالحه ، وهذا مظهر لا غنى عنه في الحياة البشرية العادية .

ان الشعور بالخطية من أبرز الخواص في المسيحية ، كما يقول أحد كتّاب العهد الجديد : «ان قلنا ليس لنا خطية نضل

أنفسنا وليس الحق فينا »[1] فادّعاء العصمة لأي رجل أو امرأة موقف لا يسيغه أحد ممن نشأوا في جو ديني. والمسيحيون لا يعزون هذه العصمة لغير المسيح ويؤيدهم في هـذا المسلمون أيضاً. وبينما قد قررت المسيحية في الأذهان وجوب «الاقتداء بالمسيح» كفرض عين على كل مسيحي، فانه لم يُقصد بهذا الاقتداء محاكاته أو مناظرته في ادعاء العصمة. ويجهد المسيحي دائباً ليكون على مثال المسيح، لا مسيحاً. وأنّا لا نسمع في المسيحية عن « مسحاء » آخرين كما نسمع في البوذية مثلاً عن « بوذا » كثيرين

فلا جدال اذاً في ان الاقتداء بالمسيح المفروض على المسيحيين السعي اليه، ليس محاكاته أو مناظرته. ولم يضع المسيحيون قط في جملة أمانيهم المبتغاة أن يفوز أحدهم يوماً بالتجرد من الشعور بالخطية، حتى الخطية المغفورة، كما كان الحال في حياة يسوع حسب وصفها في الانجيل. ومهما بدا من التناقض الظاهري فان الشعور بالخطية الشخصية والافتقار الى الغفران، هـذا الشعور الذي يعتبره المسيحيون من المستلزمات في كل نفس تقية قديسة، انما يختبرونه على أثر انسياب قوة حياة اخرى فيهم،

---

(١) ١ يو١:٨

حياة هي النموذج الكامل للسلوك ، وتخلو خلواً تاماً من هذا الشعور بالخطية . وتلك الحياة والأخلاق التي لا أثر فيها للتوبة قد خلقت مثلاً أعلى للسلوك الذي يحس دائماً بالتوبة والأستنابة بحيث يكون شعور التحرر من الخطية في نظر المسيحي مستمداً من الشعور بالغفران

خلاصة الفصل :

والآن يمكننا ان نلخص ما قلناه عن الوصيتين العظيمتين: فهما قد انطوتا على محبة لله وللقريب ، محبة عملية لا عاطفية . وانطوت العبارة القائلة « تحب قريبك كنفسك » على أن محبة النفس من هذا النوع ذاته. ثم ان علاقة الله بالانسان، والأنسان بالله ، التي هي أساس الوصيتين ، من شأنها أن تخلق المشاعر الملائمة لهذه العلاقات ، مشاعر ينطبق عليها بطبيعة الحال ماتعنيه كلمة «المحبة» . أما عن محبة النفس فان الوصيتين تفترضان أن الناس يسعون وراء ما يعرفونه أو يظنونه في صالحهم ، ولذلك يؤمرون أن يعاملوا الآخرين بهذا المبدأ عينه، أي بنسبة مانعرفه أو نظنه في صالحهم . ويبدو لنا أن قول «كانت» الفيلسوف[1]

(1) Grundlegung Zur Metaphysik der Sitten Werke. ed. Hartenstein IV. p. 277, Eng. tr., Abbott's Kant's Theory of Ethics p. 47.

انه لزام على المرء أن يعامل الانسانية ،في شخصه أو في الآخرين كغرض لا كوسيلة، يبدو لنا أن هذا القول بمثابة تفسير تقريبي لوصية الانجيل . على أن الفيلسوف في قوله أغفل ما تضمنه صراحة حكم الانجيل في الحالتين،ألا وهو أن اشخاصنا واشخاص الآخرين على السواء ، كائنات خاطئة تفتقر قبل كل شيء الى الغفران ، وهذه عقيدة من العقائد المتأصلة في الاختبار المسيحي وهي عقيدة تخفف من حدة الاعتداد بالكرامة التي قويت في « كانت » كما قويت في الرواقيين من قبله — والتي اصطبغت بها كل تعاليمه الأخلاقية بادخال شعور عدم الجدارة الشخصية بمعزل عن نعمة الله الذي نراه عزيزاً قديراً حكيماً ونرى فيه « القريب » أيضاً

ويقوم الوضع الأخلاقي الذي تمتاز به المسيحية على الثقة البنوية في الله كأب ، وعن اخوّة لجميع الناس كابناء لله . وهو وضع نستلهمه من موقفنا حيال يسوع كوسيط بين الله والناس ، وكحائز بطبيعته بنوة الله ، يشاطره الآخرون فيها بالتبني . ولا ريب في أن الله قد يحسب كأب ، والناس كلهم أبناء له، فأخوة بعضهم لبعض ، بغضّ النظر عن عقيدة بنوة المسيح الالهية قد يكون هذا ، ولكن من ناحية الحقائق التاريخية ذات

الشأن في دراسة علم الدين المقارن، نرى أن الوضع الذي تفترضه المسيحية في تكييف العلاقة بين الله والأنسان ، انما ناشيء عن ارتباطه بعقيدة بنوة المسيح الالهية ، وهي لا تجيز للمستمسكين بها ادعاء بنوة الله كحق من حقوقهم ، وتجبرهم على ألاَّ يدَّعوا هذه البنوة الا بعد أن يُستنقذوا من خطاياهم، ويتصالحوا مع الله بوسيط آخر هو يسوع المسيح